ما الذي يضيع بضياع اللغة؟[١]

قبل أن أُقدِّمَ إجابةً أو إجاباتٍ عن هذا السؤال أراني مضطرًا للتأكيد على مقدّمتَين، أُولاهما ترتبطُ بسياقِ الإجابة، فهذا سؤالٌ ينفتحُ على مجالاتٍ عديدةٍ يُمكن اختبارُ ضياعِ اللغةِ فيها، كأنْ نبحثَ عن أثرِ ضياعِها على التحصيل الدراسيِّ للطلابِ، أو أن نبحثَ عن أثرِه في تطورِ البحثِ العلميِّ في الدول، أو ما يترتب عن ضياعها من آثارٍ على الوحدةِ السياسيَّةِ في الدولِ ذاتِ التنوُّعِ اللغويِّ، وتغطيةُ كلِّ هذه المجالاتِ وغيرها ليس من شأن حديثنا اليوم، لأنَّ هذا الحديثَ يأتي في سياق ملتقى تساؤلات الهوية، لذا سأركز في إجابتي على هذا المجال.

أما المقدمة الثانية فقد تبدو للوهلة الأولى أجنبيةً عن الموضوع، لأنها ذات علاقة بهوية المتحدث أمامكم، بهويته الشخصية التي لا أظنكم قد تجشمتم عناء الحضور لتعرفوها، لكنَّ لي بها مَأْرَبًا لعلكم تعذروني به حين يتبدى لكم في نهاية حديثي.

أنا معلمٌ للغة العربية ... هكذا أُعرِّف نفسي حين أُسأَلُ عنها؛ ولا أراني عندها أتحدث عن وظيفةٍ أُؤدِّيها مقابل أجرٍ من الدولة، فأنا أحبُّ التعليمَ وأعشق اللغة العربية، وأرى في ممارستي لتعلميها تأكيدًا لوجودي في هذا العالم، وتعبيرًا عن هويَّتي الشخصيَّة، ووفاءً لهويَّتي الحضاريَّة والثقافيَّة، ولأنَّ جزءًا لا يستهان به من عناوين هويَّة الفردِ إنَّما فَرَضَتْهُ عليه ظروفُ نشأتِه وعواملُ بيئتِه، كما فرضت عليه معانيها ودلالاتها، وحدَّدت في عقل الآخر أفقَ التوقع لكلِّ عنوانٍ منها، ورسمت له صورتَه النمطيَّة، فإنِّي سأقف الليلة أمامكم محاولًا التطهُّر مما فُرِضَ عليَّ من لوازمِ هويتي المكتسبةِ من عملي في التعليم.

[١] نص المحاضرة التي ألقيتها في يوم الثلاثاء ٧/٦/٢٠٢٢، ضمن فعاليات ملتقى تساؤلات الهوية الذي نظَّمته مكتبة تكوين.

فعادةً ما يُنْظَر إلى وظيفة المعلم على أنها وظيفةٌ تبسيطيةٌ ناقلة، فهو يُعْمِلُ فكره في المنهج مبسِّطًا مسائله، وحالًّا عقده، وملخِّصًا ما أُطْنِبَ فيه، ثم يُقبل على التأمل في الطريقة المثلى لنقل ذلك الاختزال المُبسَّط إلى طلابه، وهذه العمليات تسمى في عرف التربية "التحضير"، ثم تبدأ الحصة الدراسية التي تستلزم إطنابًا في شرح المُبَسَّط، وإطالةً في عرض الملخَّص، كي تجد المعرفةُ المنقولةُ سبيلَها للاستقرارِ في عقلِ الطالب، وهكذا يكتسبُ المعلِّمُ صفةَ المُبَسِّطِ لا للعلم الذي يعلِّمُه، بل لعقل الطالب الذي يعلِّمه، كما يكتسب صفةَ ورقةِ الكربون التي تطبعُ معالمَ الهويَّةِ الرسميَّةِ التي يُرادُ تكرارها في الجيل اللاحق.

"لينجحَ المعلمُ في عملِه لا بدَّ من تبسيطِ شخصيَّةِ الطالبِ بعدَ تبسيطِ عقلِه، وتبسيطِ هويَّتِه بعدَ تبسيطِ شخصيَّتِه"

وبما أنّنا في محضر مكتبة تكوين الراعي غير الرسمي لأدب الرواية، فإنِّي أستميحكم العذر في قياس عمل المعلم بعمل الروائيين مع التنبيه على الفوارق بين الفريقين، فالروائيون يخلقون شخصيات أعمالهم، ويسبغون عليهم هوياتٍ تُعِينُهم في تحريك أحداثِ الروايةِ وتعقيدِها وُصولًا إلى الحل، وينتج عن ذلك عملٌ أدبيٌّ جميلٌ، أمّا المعلِّمون فلا يملكونَ القدرةَ على خلقِ الشخصيَّات، وحُرِموا حرِّيَّةَ اختيارِ الهويَّاتِ التي يُرادُ إسباغُها عليها، لكنَّهم يشتركون مع الفريقِ الأوَّلِ في العمل على تشكيلِ هويَّاتِ الشخصيَّاتِ التي فُرِضَتْ عليهم، أو فُرِضُوا عليها، لكنَّ هذا العملَ -إذا نجح- لا يُسْفِرُ عن أدبٍ جميلٍ بل عن مُواطنٍ صالح.

ولينجحَ المعلمُ في عملِه لا بدَّ من تبسيطِ شخصيَّةِ الطالبِ بعدَ تبسيطِ عقلِه، وتبسيطِ هويَّتِه بعدَ تبسيطِ شخصيَّتِه، وكلُّ ذلك بهدفِ إدماجِه في المجتمع، وخلقِ مشتركاتٍ بينَه وبين بقيَّةِ أفراده تُسمَّى هويَّةً ثقافيَّةً تارة، وهويةً وطنيةً تارةً أخرى، وهذا عكسُ المطلوبِ من الروائيين الذين يتجلَّى فنُّهم في خلقِ شخصيَّاتٍ معقَّدَةٍ لأبطالِ أعمالهم، ذاتِ هويَّاتٍ مركَّبَةٍ غنية، ليكتسبوا بذلك صفة التعقيد التي تُضفِي على الرواية عمقًا وحياة.

وقد نظرت في تجربتي التعليميةِ المُشَكِّلةِ لما أعنيه حين أقول: "أنا معلم"، فوجدتني غير مقتنعٍ بهذا الدور الذي يُسْنَدُ إلى الفئةِ التي أنتمي لها انتماءَ هويَّةٍ لا انتماءَ وظيفة؛ فئةِ

المعلِّمين أو عمالِ مطابعِ الهويةِ الرسميَّةِ، بل إنَّني أرفضُ أن يكونَ مثلُ هذا التصوُّرِ جزءًا من هويتي، لأنِّي لم أجدْ مصدرًا شرعيًّا يُتيحُ لي مثلَ هذه السلطةِ على نفوسِ طلابي وشخصياتِهم وعقولِهم وهويَّاتِهم.

وأخذت أتأملُ فيما يمكنُ أن يكونَ مشروعًا في ممارستي للتعليم، فوجدتُ أنَّ التعليمَ المشروعَ لا غايةَ له سوى تمكينُ الفردِ من التحرُّر مما يُفْرَضُ عليه بالقوة، ليكون مسؤولًا عن اختيار هويَّتِهِ وتعديلِها أو تغييرِها، وليكون قادرًا على مساءلة الهويَّاتِ التي تُفْرَض عليه، فيعتنق منها ما يشاء هو لا أحدٌ غيره، أو يرفض منها ما يشاءُ هو لا أحدٌ غيره، أي أن يختار بوعيِه متى يَقُودُ ومتى يَنْقَادُ، ويختار بوعيه متى يجتهد ومتى يقلِّد، ويختار بوعيه متى يكون "هو" ومتى يكون "هم"، ويختار بوعيه متى يقول "أنا" ومتى يقول "نحن".

> "العالَمُ يعيش ازدواجيَّةً غريبة؛ يحتفي بالتعدُّدِ الثقافيِّ والتنوُّعِ الحضاريِّ من جهة، لكنه يرزح تحت عوامل التبسيطِ الثقافيِّ والتوحُّدِ الحضاريِّ باسم العولمةِ"

وهنا يكمن الفارق الجوهري في قياسنا، فالتعليم ليس ككتابة رواية أدبية، لأن شخصيات التعليم "المشروع" تخلق نفسَها، وتختار هوياتِها، وتسلِّطُ إرادتَها على مصيرِها قَدْرَ الإمكان، إنَّها شخصيّاتٌ تكتبُ نفسَها بوعي، فلا تخضعُ لسلطةِ المؤلِّفِ أو المعلِّمِ المفروض عليهم، وهي كذلك وإن كانت محدودةً بنطاقِ عالمٍ لم تُسهِم في خلقه، ولا في تشكيل ظروفه، عالمٍ أضحى قريةً صغيرة، وشأن القرى الصغيرة أن يكونَ أهلُها بسطاء، تجمعهم قيمٌ واحدةٌ، وأعرافٌ واحدة، وأفكارٌ واحدة، ولغةٌ واحدة، فينتج عن ذلك هويةٌ واحدةٌ لا تُعبِّر عن هويةِ قريةٍ صغيرة، بل عن هويَّةِ عالم صغيرٍ شكلَّته العولمة.

وهنا تكمن المشكلة، فالعالَمُ يعيش ازدواجيَّةً غريبة؛ يحتفي بالتعدُّدِ الثقافيِّ والتنوُّعِ الحضاريِّ من جهة، لكنه يرزح تحت عواملِ التبسيطِ الثقافيِّ والتوحُّدِ الحضاريِّ باسم العولمةِ من جهةٍ أخرى، ومن هنا نعودُ إلى عنوان هذه الكلمة، "ما الذي يضيع بضياع اللغة؟"، وكعادة أي إجابةٍ عن أيِّ سؤال، لا بدَّ من توضيحِ منطقِ الإجابةِ لتُفْهَم، وأمام هذا السؤال،

ستكون الإجابةُ البَدَهِيَّةُ عنه بمنطقِ العولمةِ والتسويقِ والتعليمِ الرسميِّ والقيمِ الكونيَّةِ والحضارةِ العالمية، ستكون الإجابةُ ببساطة: إنَّنا لن نفقدَ شيئًا.

لأنَّنا سنفقد لغةً محليَّةً أو إقليميَّةً لنكتسبَ لغةً عالميَّةً، ومكاسبُ اللغةِ العالميَّةِ "في ذلك المنطق" تَفوقُ بكثيرٍ مكاسبَ اللُّغاتِ المحليَّةِ أو لغاتِ الحضاراتِ التي زالَ تأثيرُها في العالم ما خلا تأثيرَ أبنائِها في تنميةِ الاستهلاكِ اللَّازمِ لتغذيةِ المصانع وحركةِ الاقتصادِ العالمي، نعم إنَّ ضياعَ لغةٍ لن يؤدِّيَ سوى إلى تسهيلِ عمليَّةِ خلقِ الترادُفِ بين ضمير المتكلمين "نحن" وضمير الغائبين "هم"، أو بمعنى آخر سيؤدي ضياعُ اللغة ـ إلى أنْ يكون الضميرُ "نحن" مجرَّد صدًى للضمير "هم"، وهو المطلوبُ حسب ذلك المنطق.

أمَّا إذا وقفنا على أرضيَّةِ منطقِ التعدُّدِ الثقافيِّ والتنوُّعِ الحضاريِّ، فإنَّ الإجابةَ البَدَهِيَّةَ عن هذا السؤالِ ستكون مغايرةً تمامًا، لأنَّ ما سنفقده إنَّما هو شخصيّاتُنا الثقافيَّةُ وهوياتُنا الحضارية، على اعتبار أنَّ اللغةَ مسكنٌ لتلك الشخصيَّةِ أو الهويَّة، أي إنَّنا سنفقدُ أنفسَنا، ونندمجُ بالآخرين، والنتيجةُ -حسب هذا المنطق- عينُ النتيجة في المنطق السابق؛ علاقةُ ترادفٍ تأباها اللغةُ بين ضميرِ المتكلِمِ الضعيفِ "نحن"، وضميرِ الغائبِ الحاضرِ "هم"، لكنَّ منطقَ التعدُّدِ لا يوافقُ منطقَ العولمةِ في حكمِه على هذه النتيجة، فهو يراها كفرًا بالذات الحضارية.

وقبل المضيِّ قُدُمًا لا بدَّ من وقفةٍ نتساءلُ فيها عن معنى ضياعِ اللغةِ أو موتِها؟ فهل اللغةُ كائنٌ حيٌّ كتلك الكائناتِ التي يدرسُها علماءُ الأحياء؟، تلك الكائنات التي تموت موتًا واحدًا في لحظةٍ واحدةٍ، فيكون موت ثقافتها وهويتها موتًا واحدًا، كالموت الذي نعي بعدَه قيمةَ المفقودِ، فنبكيه ونترحمُ عليهِ ثم نمضي في حياتنا بجراحٍ لا تلبثُ طويلًا حتى تندمل، فنستعيد تكيُّفَنا مع الحياةِ بلغةٍ جديدةٍ تحملُ ثقافةً جديدةً وهويةً جديدة.

> "اللغةُ لا تموتُ دفعةً واحدةً، لكنها تنسحبُ من مسرحِ الوجودِ ببطءٍ ... وقد يستغرقُ موتُها قرونًا متطاولة، حتّى ليخالُ أهلُها أنَّها لن تموت"

إنَّ مثلَ هذا الفقدِ أو الموتِ يتَّسِقُ مع فهم شيوخنا الصرفيِّين للفعلِ "مات"، فقد عدُّوهُ فعلًا غير قابلٍ للتفاوتِ والتدرُّجِ، لذا مَنَعُوا اشتقاقَ اسمِ التفضيلِ منه، فلا يصحُّ عندهم أن تقول: "فلانٌ أَمْوَتُ من فلان" إلَّا بتأويل، لكنَّ مثلَ هذا الموت قد يبدو مستبعدًا عند الحديث عن اللغة، لأنَّه يتطلَّبُ إفناءَ جميعِ المتحدِّثين باللغةِ الواحدةِ في ساعةٍ واحدةٍ، وهذا أمرٌ يندرُ حدوثُه إنْ لم يكنْ مستحيلًا في هذا العصر، وإذا حَدَثَ فإنَّنا لن نكونَ أمامَ مشكلةٍ ثقافيةٍ ترتبطُ باللغةِ أو الهويةِ أو الثقافة، بل سنكون أمامَ جريمةِ تطهيرٍ عرقيٍّ كاملة.

فإذا استبعدنا تلك الفرضيَّةَ فسنجدُ أنفسَنا أمامَ فرضيَّةٍ أخرى، تكونُ فيها اللغةُ كائنًا شبيهًا بالملكِ الضِّليلِ امرئ القيس، تموتُ كموتِه الذي وصفه بقوله:

فَلَوْ أَنَّها نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً وَلَكِنَّها نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسَا

فاللغةُ لا تموتُ دفعةً واحدةً، لكنها تنسحبُ من مسرحِ الوجودِ ببطءٍ مخلِّفَةً وراءها أطلالًا يقفُ عليها عشاقُها ينتحبون، أو ينكبُّ عليها علماء الآثار ينقِّبون، وقد يستغرقُ موتُها قرونًا متطاولة، حتّى ليخالُ أهلُها أنَّها لن تموت، لكنها في الحقيقة تُسَاقِطُ أَنْفُسَها نفسًا نفسا، حتى إذا استنفدت نفوسَها لم تُلْفِ إلَّا فئةَ العشاقِ وعلماءَ الآثارِ ليهتموا بها.

وعلى عكس المتوقع فإنَّ الذي يسقط أوَّلًا ليس اللغةَ بوصفِها نظامًا من الرموزِ الصوتيَّةِ تحكمه قواعدُ لتشفيرِ الأفكارِ لتكونَ قابلةً للنقلِ بين الأذهان، بل الذي يسقط أوَّلًا من نفوس اللغةِ ثقافتُها، أي روحُ نظامِ التشفيرِ وفكِّ التشفيرِ الذي يعطي للُّغةِ معناها الحيَّ، وقيمتَها في نفوسِ أهلها، الذي يسقط أولًا هو اللغةُ بوصفِها ظاهرةً اجتماعيةً ثقافية.

وحسب هذا المنطقِ لا تضيعُ الهويَّةُ بضياعِ اللغةِ، بل العكسُ هو ما يحدث، تضيع اللغةُ بفقدانِها هويّتَها وثقافتَها، ويكون هذا الضياع لا في اللغة بوصفها نظامًا مجرَّدًا، بل

في نفوس أهلِها بوصفِهم كائناتٍ اجتماعيَّةً يتنازعها انتماءٌ للماضي والحاضر، فتَسَاقُطُ نفوسِ اللغةِ يبدأ حين يحتقرُ أهلُها ماضيهم، والماضي خالقُ الثقافةِ والهويَّةِ واللغة، ويستمرُّ التساقطُ حين يتخلَّى أهلُها عن رَفْدِ لغتِهم بإبداعاتِهم مُكْتَفِينَ باستيرادِ إبداعاتِ غيرهم، فإذا فقدت اللغةُ ثقافتَها الماضيةَ وإبداعَ أهلها في الحاضرِ انحسر مجالُها الاجتماعي.

إذن فحياةُ اللغة تعتمد على ما يصطلح عليه علماء علم اللغة الاجتماعي بـ"الموقف من اللغة"، ذلك الموقف الذي يعكس الشعور الذي يُكِنُّه الناسُ نحوَ لغتِهم أو نحوَ لغةِ الآخرين، وهذا الشعورُ مرتبطٌ بعواملَ اجتماعيةٍ واقتصاديةٍ وثقافية، فلا يمكنُ أن تضيعَ لغةٌ يتَّخِذُ أهلُها منها موقفَ الاعتزازِ بثقافتِهم التي تعيش في لغتهم، ولا يمكن أن تموت لغة يخلق أهلها لها سوقًا تروج فيه.

وهذا يُحيلُ إلى ما يُسمِّيه علماءُ اللغةِ بمبدأ "تأثيرِ المجال"، الذي يقضي بأنَّ اللغةَ حين تُخْتَزَل وظائفُها فيقلَّ استخدامُها في مجالٍ ما، فإنَّ مهارةَ المتكلِّمين بها في ذلك المجالِ تقلُّ تدريجيًّا حتى تنعدمَ مع الزمن، ولأنَّ الوجودَ الإنسانيَّ يأبى الفراغ، فإنَّ الفراغَ الذي يخلِّفُه انحسارُ اللغةِ عن مجالٍ ما سرعانَ ما يُمْلَأُ بلغةٍ أخرى، ومع الوقتِ تتحسَّنُ مهاراتِ المتكلِّمين باللغةِ الجديدةِ لتتناسبَ عكسيًّا مع مهاراتِهم في استخدام اللغةِ القديمةِ في المجال نفسه.

وهذا يذكِّرُني بمشكلتِي مع مجالات الحياةِ في مجتمعي، فأنا أتحدَّثُ الفصحى مع طلّابي في الفصل، فإذا خرجتُ من المدرسةِ وجدتُني مُضْطَرًّا للحديثِ باللهجة الكويتيَّةِ كي لا أُرْمَى بتهمةِ التعالي والتفلْسُف، وأجتنَّبَ معاملةَ الآخرين لي وفقَ مُقتضيات الصورةِ النمطيَّةِ الكاريكاتيرية لمعلِّم اللغةِ العربيَّةِ التي صنعتها السينما والمسرح والمسلسلات، وحين أُبْتَلَى بالذهابِ للسوقِ أو لمطعمٍ أجدُني أتعثَّرُ باللغة الإنجليزيَّةِ اليوميَّة لأتفاهم مع البائع أو النادل، ولمَّا قررت دراسة الماجستير وجدتُني أزحفُ فوق نصوصٍ كُتِبَتْ بإنجليزيَّةٍ أكاديميَّةٍ تنتمي إلى الفلسفة . هذه مجالات حركتي مع لُغَتَيْنِ ولَهجَةٍ، وكم أنا محظوظٌ بمجالي الصغير لممارسة

الحديث بالفصحى، لأنِّي أعرفُ كثيرًا من عشاقِ العربيَّةِ فَرَضَتْ عليهم بيئاتُ عملِهم ألَّا يتحدَّثوا بغيرِ الإنجليزية، وفرضَ عليهم أبناؤهم الصغار ألَّا يحدِّثوهم بغير الإنجليزية!

ويزدادُ تأثيرُ المجالِ حين تزدادُ الفجوةُ بين الأجيالِ في المجتمع، تلك الفجوةُ التي صارت هوَّةً سحيقةً تفصلُ بين الأجيالِ بفعلِ جنونِ التغيُّرِ الذي يَعْتَرِي عَقْلَ العالَمِ وقلبَه، لتشعر الأجيالُ اللَّاحقةُ بِأَنَّ الماضِيَ "القريبَ جدًّا" قيدٌ لا بدَّ مِنَ التحرُّرِ منه، وأنَّ ثقافة ذلك الماضي "القريبِ جدًّا" لا تنتمي لحاضرِها، وأنَّ هويَّتَه لا تُناسِبُ واقعَها، وعندها يغدو تأثيرُ المجالِ سرطانًا في جسدِ اللغةِ تُغذِّيه رغبةٌ محمومةٌ عند جيلٍ يسعى لصناعةِ ذاتِه بعيدًا عن ذوات الماضي القريب جدًّا بَلْهَ البعيد.

وقد يُفْهَم ممَّا سبق أنَّ ضياعَ اللغةِ ما هو إلَّا نتيجةٌ من نتائجِ ضياعِ الهويَّةِ والثقافة، وهذا خروجٌ عن عنوان حديث الليلة (ما الذي يضيع بضياع اللغة؟)، وإجابةٌ عن سؤالٍ آخر (كيف تضيعُ اللغة؟)، لكنَّ الأمرَ ليسَ بهذه البساطةِ السخيفة، ولنفهمَ ذلك علينا أنْ نتحرَّرَ من الاستعارةِ الناتجةِ عن تشبيهِ اللغةِ بالكائنِ الحيِّ، تلك الاستعارةُ التي شَغَلَتْ حَيِّزًا كبيرًا ممَّا تَقَدَّمَ من كلام، لأنَّها استعارةٌ حمقاءُ نتجتْ في عَصْرٍ استعارتْ فيه كُلُّ العلومِ نموذجَها الإرشاديَّ من نظريَّة التطوُّر، وعلينا أنْ نَنْظُرَ للُّغةِ من منظورِ استعارةٍ أخرى تَقْضِي بِأَنْ تكونَ اللُّغةُ ظاهرةً اجتماعيَّةً تتبادَلُ التأثيرَ والتأثُّرَ مع بقيَّةِ الظواهرِ الاجتماعيَّةِ، خالقةً بذلك مجالًا اجتماعيًّا يؤثِّرُ بالأفراد، ويؤثِّر الأفرادُ فيه.

إنَّنا نتحدَّثُ عن غَريقَيْنِ يتبادلانِ شدَّ بعضَيْهِمَا إلى القاع، فضياعُ الثقافةِ أو موتُها التدريجيّ يسحب معه اللغة، وانحسارُ اللغةِ أو موتُها التدريجيُّ يُسَرِّعُ موتَ الثقافة، والهويَّةُ بينهما حرباء تغيِّرُ لونَها بتغيُّرِ السطحِ الذي تقفُ عليه، حتى إذا غابتْ ألوانُ الثقافةِ واللغةِ الآفِلَتَيْنِ؛ فإنَّك لن تَجِدَ في الهُوِيَّةِ لونًا غيرَ ألوانِ اللغةِ الجديدةِ وثقافتِها، وشِيَةٌ بَاهِتَةٌ من بقايا اللغةِ والثقافةِ السابقة.

نعم، قد تبقَى اللغةُ حاضرةً في مجالاتٍ بعينِها، كحضورِ اللغةِ في المجالِ الدينيِّ عندما تكونُ لغةَ النصوصِ المقدَّسةِ، وقد يبقَى من الثقافةِ بعضَ جوانبِها الماديَّةِ وغيرِ الماديَّة، لكنَّ ذلك الحضورَ للُّغةِ، وهذا البقاءُ للثقافةِ سيكونُ بلا تأثيرٍ عميقٍ في واقعِ المجتمعِ لفقدانِهما المعنى، وهذا يُذكِّرُني برجالِ العاصمةِ البنغلاديشيَّةِ "دكا" حين امتنعوا عن قضاء حاجاتِهم أمامَ جدرانِ المباني العامَّةِ التي كُتِبَتْ عليها عباراتٌ باللغةِ العربيةِ، لا لأنَّهم استوعبوا ما كُتِبَ بهذه اللغةِ وانصاعوا لمضمونِه، بل لأنَّها لغةٌ مقدَّسةٌ لا ينبغي التبوُّلُ أمامَها، كما يذكِّرُني بالملحِدِ يقضي ساعاتٍ في شراءِ الهدايا وتزيينِ بيتِه للاحتفال بميلادِ السيِّدِ المسيح.

وهنا نستعيدُ حديثنا عن الموقفِ من اللغةِ أو الثقافة، فالتقديسُ موقفٌ يمكن اتخاذُه تجاههما، ومن المفترَضِ أنْ يُسْهِمَ في حفظهما، لكنَّه موقفٌ ضعيفٌ غيرُ قادرٍ على بثِّ الحياةِ في اللغة والثقافة، فالتقديسُ قد يكونُ سببًا لحفظهما حفظَ تحنيطٍ لا حفظَ حياة، فالمقدَّسُ ينتمي للمجال الديني الروحي، وكثيرًا ما يفقدُ المقدَّسُ معناهُ ودورَه في الحياة الروحيَّةِ والاجتماعيَّةِ حين يغدو غامضًا لا تَفْهَمُهُ إلَّا فئةٌ قليلةٌ من سَدَنَتِه، وإنَّما يفقدُ الناسُ قدرتَهم على فهمِ المقدَّسِ حين يفقدون القدرةَ على التواصلِ مع الثقافةِ التي نَشَأَ فيها، واللغةِ التي عبَّرتْ عن قداسَتِه.

ولعلَّ هذا ما استوعبَه علماءُ المسلمين في القرون الأولى، فأقبلوا على جمعِ تراثِ الجاهليَّةِ شعرًا ونثرًا، ودرسوا عاداتِها وأفكارَها، وشرحوا أمثالَها، وأَرَّخُوا أيَّامها، وبيَّنوا الدلالات الثقافية لألفاظها ومجازاتها وكناياتها، واستقرَؤُوا كلامَ الجاهليين الماضين والأعرابَ الأحياء في زمانهم ليزدادوا عِلْمًا بنظامِ التشفيرِ اللغويِّ المُعْتَمِدِ على قوانين إنتاجِ العباراتِ اللغويَّةِ وفهمها، والأعرافِ الثقافيَّةِ المرتبطةِ باستخدامِها، وكلُّ ذلك في سبيلِ جعل النصوصِ المقدَّسةِ قابلةً للفهمِ والحياة، ولو لم يفعلوا ذلك لما كان للعربيَّةِ العمرُ الذي عاشته، ولَكان أكثرُنا كرجالِ العاصمةِ البنغلاديشيَّةِ دكا لا نبول أمام العربية ولا نفهمها.

وقد تبقى الثقافةُ بقاءً بلا معنى ومن دون تقديسٍ أيضًا، لا لشيءٍ سوى لاعتيادِ الشعوبِ على ممارستها، فكأنَّها صلاةٌ بلا خشوعٍ اعتادَ صاحبُها أنْ تُسَيِّرَه القيادةُ الآليَّةُ من التكبيرِ إلى التسليمِ، أو أنْ تُبْقِيَها عواملُ العَرْضِ والطَّلَبِ المُحَرِّكَةُ للأسواقِ في مواسم الأعياد، الأعياد التي ما عادت أيَّامًا للاحتفال بالقيمِ الإنسانيَّةِ التي كانت أساسَ إدخالِها في الثقافة، بل هي الآنَ أيَّامٌ للاحتفالِ بالزينةِ التي تُتيحُها الأسواقُ، وبالعطلةِ التي تجودُ بها الحكوماتُ والشركاتُ.

إذن فاللغةُ لا تضيعُ إلَّا إذا تخلَّى الناسُ عن استخدامِها في مجالاتِ حياتهم، ولا يتخلَّى الناسُ عن لغاتِهم إلَّا إذا اتَّخذوا موقفًا سلبيًّا منها، أو قدَّسوها تقديسَ مَنْ لا يفهم، وهذا لا يكون إلَّا إذا فقدتْ ثقافةُ اللغةِ قيمتَها في نفوسِ أبنائِها، وثقافةُ اللغةِ ليست سوى ثقافةِ مُسْتَعْمِلِ اللغةِ سواءٌ تلك التي ورثوها أم تلك التي أبدعوها بأنفسهم، وكما أشرنا فإنَّ ثقافةً جديدةً تُزاحمُ الثقافةَ القديمةَ فتزيحُها مع لغتِها، لتفرضَ نفسَها ولغتَها الجديدة، فارضةً بذلك تَبَعِيَّةَ أبناءِ اللغةِ السابقةِ لأبناءِ اللغةِ الجديدة، وهذا ما أشار له كلُّ الباحثين في علاقةِ اللغةِ بالاستقلال السياسيِّ، وهذا حديثٌ باتَ الإطنابُ فيه مملًّا لبداهَتِهِ وَلِكَثْرَةِ وُرُودِهِ على الألسنة، فمنْ أرادَ الاستزادةَ فيه فليرجع إلى أعمال الدكتور مختار الغوث.

لعلَّ هذه الإجابةَ تكفي مَنْ يَهْتَمُّ بشأنِ المجموعِ الذي يتجلَّى في معنى الأمة، أو القوميَّة، أو الوطن، أو المجتمع، ذلك المنطقُ الذي يتكلَّم عن نفسه بضمير المتكلمين "نحن"، لكنَّها بالمنطقِ الفرديِّ غيرُ كافية، لأنَّ هذا المنطق يُحَبِّذُ الحديثَ عن نفسِه باستخدامِ ضمير المتكلِّم المفرد "أنا"، سواءٌ أكانت تلك الـ"أنا" عاقلةً رزينةً أم جاهلةً نَزِقَةً، وهذا المنطق يشهدُ في هذا العصرِ ازدهارًا وانتشارًا لم يُشْهَدْ مَثيلُه في تاريخ البشريَّةِ، فما الذي يضيعُ بضياعِ اللغةِ حسب هذا المنطق؟

إنَّ الإجابةَ عن هذا السؤالِ تستلزمُ حلَّ التباسٍ لغويٍّ ناتجٍ عن استخدامِ كلمةِ "الهويَّة" بصيغةِ المفردِ للتعبير عن خياراتٍ قد لا يكونُ لها حصرٌ، فنحن نتكلَّمُ عن الهويَّةِ الإسلاميَّةِ وكأنَّها شيءٌ واحدٌ لا تعدُّد فيه، بينما الواقعُ أنَّنا بصددِ هُويَّاتٍ إسلاميَّةٍ غنيَّةٍ

ومتنوّعةٍ بتنوُّع المذاهبِ والمدارسِ الإسلاميَّةِ والثقافاتِ المحليَّة التي جاورَتِ الإسلامَ في كلِّ بقعةٍ حَلَّ بها، وكذلك الحال عند الحديثِ عن هويَّاتنا العرقيَّة والإقليميَّةِ والوطنيَّةِ والقبليَّة، وقد لا يكون هذا اللَّبْسُ ناتجًا عن مجرد الاستخدامِ اللغوي لكلمة "هوية"، بل إنَّ العلومَ الإنسانيَّةَ في صورتِها القديمةِ عزَّزَتْ اللَّبْسَ حين استعانتْ بمنطقِ الاختزالِ والتعميمِ للتعبيرِ عن تلك الهويَّات المزعومة، خالقةً بذلك صورًا نمطيَّةً بسيطةً تُعْمِلُ عليها أدواتِ التأمُّلِ والبحثِ العلميّ، كما تعزِّزُها أعمالُ الأدباءِ والمثقفين والرَّحالة.

ثم أتت الدولةُ الحديثةُ بما أُتيحَ لها من سلطةٍ وقوَّة، ومِن رغبةٍ في تأكيدِ وجودِها المستقلّ، فابتدعتْ لنفسِها هويةً وطنيَّةً سَعَتْ إلى جَمْعِ الناسِ عليها، وإذابةِ هويَّاتهم فيها، واستعانتْ في سبيلِ ذلك بالتعليمِ الرَّسميّ، والإعلامِ الرسميِّ، والأدب والفن المدعومَيْن رسميًّا، وبرجالِ الأمنِ، وبعضِ شيوخِ الدينِ، ومُهَرِّجي السياسة، فصار الفردُ فيها ينشأُ في المحيطِ الرسميِّ ضمنَ هُويَّةٍ وطنيَّةٍ واحدةٍ يُرادُ له أنْ يعتنقَها.

وبالعودةِ إلى سؤالِنا حول ما يضيعُ عندَ ضياعِ اللغةِ على مستوى الفرد، لا بدَّ من التأكيدِ على أنَّ الحديثَ عن اللغةِ في هذا المستوى ليس بما يحملُه مصطلحُ "اللغة" من دلالةٍ لدى اللسانيين، فاللغة عندهم ملكةٌ موجودةٌ في كلِّ إنسانٍ سليم، تجعلُه قابلًا لتعلُّم "اللِّسانِ"، ومصطلح "اللسان" عند اللسانيين يرادف "اللغة" في أعرافنا، كاللغة العربية أو الإنجليزية أو غيرها، لذا فإنَّنا لا نعني بضياعِ اللغةِ في مستوى الفردِ فقدانَه للملكةِ اللغويَّةِ، لأنَّ هذا سيُحيلُنا إلى أبحاثِ علمِ النفسِ، بل نعني فقدانَه لمهاراتِ لغتِه الحضاريَّةِ أو الثقافيَّة لصالحِ لغةٍ أخرى.

فإذا راعَيْنا هاتَيْن المقدّمَتيْن، أعني تعدُّدَ الهويَّاتِ داخلَ الهويَّةِ الواحدة، وقدرةَ الفردِ على التعامُلِ مع لغتِه الحضاريَّةِ أو الثقافيَّةِ التي تستوعبُ كلَّ هويَّاتِه المنتميةِ لماضيه، فإنَّ الإجابةَ عن سؤالِ الضائع بضياعِ اللغةِ ستُشْتَقُّ من موقفِ الفردِ أمامَ خياراتٍ عديدةٍ لا يمكنه التعاملُ معها لفقدِه الشرطَ الأساسَ لفهمِها ومعالجتِها ونقدِها، إنَّه موقفُ الفردِ في تعاملِه مع العالم (٣) كما حلا لكارل بوبر أنْ يُسمِّيه.

واسمحوا لي الآن أنْ أُضيفَ مقدمةً ثالثةً حول العوالم الثلاثة لدى كارل بوبر، فالوجودُ عنده تجلّى أوّلًا في عالم المادة -أو ما يسميه العالم (١)- المحكومُ بقوانين الطبيعة، وهو أوّل العوالم ظهورًا، ثم ما لبثت الحياةُ أنْ وجدتْ طريقَها إلى ساحةِ الوجودِ لتُوجدَ عالَمًا جديدًا هو عالم النفس (العالم ٢)، وأخذ هذا العالَمُ يتطوَّرُ ويتعَقَّدُ حتى ظَهَرَ الإنسانُ الذي انطوى فيه العالم الأكبر حسب تعبير الإمام علي بن أبي طالب، وكان أن اخترعَ الإنسانُ اللغةَ ليتواصلَ مع بني جنسِه، فَخَلَقَ بذلك العالم (٣)؛ عالمَ الأفكارِ والنظرياتِ، عالمَ الدينِ والفنِّ والأدبِ، عالمَ الأساطيرِ والتاريخِ والعلومِ، وهو العالَمُ الذي تسكنُه الهويَّة، أو تسكنُه الهويَّاتُ المتكاملةُ، والهويات المتسقةُ، والمهويّاتُ المتعاندةُ والمتضادةُ والمتزاحمة، إنَّه العالمُ الذي أوجدتْه اللغةُ لتعيشَ فيه.

وكائناتُ هذا العالَمِ متفاوتةٌ من جهةِ قابليَّتِها للترجمة بين اللغات، فما كان منها كائنًا موضوعيًا كقوانين الرياضيَّاتِ ونظريَّاتِ العلومِ الطبيعيَّةِ سَهُلَتْ ترجمتهُ بأمانةٍ، وتيسَّرَ ونقلُه بينَ مختلفِ اللُّغاتِ نقلًا موضوعيًّا، وأمّا ما كان منها كائنًا ثقافيًا أو دينيًّا أو أدبيًّا فإن ترجمته الأمينة تصعب إلى حدِّ التعذُّرِ أحيانًا، فلا يُنْقَلُ إلا بخيانةٍ للأصل، وهكذا نفرِّق بين المعرفة الموضوعيَّةِ التي تنتمي لعالم العلوم، والمعرفة الذاتيَّةِ أو الثقافيَّة التي تنتمي لعالم الهوية.

وهذا يُعيدُني إلى ما افتتحتُ به هذا الحديثَ، إلى التعليمِ الذي أراهُ جزءًا من هويَّتِي الشخصيَّة، فالدُّولُ -كما تقدَّم- تُنْشِئُ مطابعَ الهويَّةِ الرسميَّةِ التي يسمونها "المدارس"، وفيها تُفْرَضُ بالتلقينِ القراءةُ الرسميَّةُ للدينِ والتاريخِ والثقافةِ والأدبِ والفنِّ والعلمِ والأخلاقِ، وعادةُ هذه القراءةِ أن تكونَ بسيطةً سطحيَّةً تُلائِمُ عقلَ الدولةِ وَتَتَّسِقُ مع عقلِ مجتمعِها، وهي مليئةٌ بصورٍ نمطيَّةٍ مثاليَّةٍ في خيرِها ومثاليَّةٍ في شرِّها، وبأحكامٍ مُعَمَّمَةٍ حول الذات والآخر، والجميل والقبيح، والصحيح والخاطئ.

وفي سبيل تحقيقِ ذلك لا مجالَ لذكرِ القراءاتِ المتصارعةِ، ولا للتعدُّدِ الثقافيِّ والفكريِّ في حضارتنا، إنَّنا نُقَدِّمُ في مطابعِ الهويَّةِ طبعةً منقَّحَةً للهوية، فإذا نجحنا في نسخِها

على صفحاتِ نفوسِ طلَّابِنا فقد حقَّقنا الهدفَ، وإذا فشلنا لسببٍ من الأسبابِ -وكثيرًا ما نفشل- فقد حقَّقنا شيئًا من الهدف، وذلك لأنَّنا إذا فشلنا في نسخِ الهويَّةِ الرسميَّةِ فإنَّنا ننجحُ في تعطيلِ قدراتِ الطالبِ الذهنيَّةِ والمعرفيَّةِ واللغويَّةِ اللازمةِ لتحقيقِ استقلالِه، فيبقى مُحْتاجًا لِمَنْ يُسَيِّرُه ويقوده.

إنَّنا نحبسُ طلَّابَنا في جزءٍ صغيرٍ جدًّا من العالم (٣)؛ جزءٍ أَمْعَنَّا في تعقيمِه وتطهيرِه وتنقيةِ هوائِه وعزلِه عن كلِّ ما لا نريدُ لهم أنْ يحتكُّوا به، فهو كالبيئاتِ المصطنعةِ التي يضعُ فيها العلماءُ فئرانَ تجارِبِهم، ثم نُطْلِقُهم إلى الحياةِ التي هي نقيضُ ما كانوا فيه، إلى حياةٍ صَنَعَها العالم (٣) بكلِّ كائناتِه التي عَزَلْنَا الطلابَ عنها، فيجدُ نفسه عاجزًا عن التعامل معها.

إنَّ ضياعَ لغةِ الحضارةِ والثقافةِ، يعني أنَّ الطالبَ سيفقدُ القدرةَ على فهمِ ثقافةِ حضارتِه وأفكارِها وأدبِها وفنِّها، وسيفقدُ القدرةَ على استيعاب تنوُّعِها والتعامُلِ مع الهويَّاتِ المتصارعةِ والهويَّات المتصالحة فيها، سيفقدُ القدرةَ على الاختيارِ العقلانيّ للموقف الذي يتَّخِذُه تجاه الماضي، والهوية التي يعتنقها في الحاضر، وعندها سيكون إمَّا تابعًا أعمى للماضي أو عدوًّا شرسًا جاهلًا.

إنَّ ضياعَ اللغةِ يعني ضياعَ القدرةِ على الاستقلالِ الذاتيِّ، والتعلُّمِ الذاتيِّ المُمَهِّدِ لاعتناقِ الهويَّاتِ الحضاريَّةِ والثقافيَّةِ، إنَّ ضياعَ اللغةِ يعني نجاحَ الدولةِ والمجتمعِ والتعليمِ والإعلامِ والأدبِ والفنِ في إنتاجِ الإنسانِ الذي يريدون أَنْ يكونَ، لا الإنسان الذي يريدُ لنفسِه أنْ يكون، إنَّ ضياعَ اللغةِ يعني ضياعَ إنسانِ اللهِ الذي أرادَه خليفةً له في الأرض.